تَوقَّعَ ابنُ قدامةَ
أن يكون هذا العالمُ شيئاً ولكن!

هذا عالمٌ ترجم له الحافظ الذهبي، فأسبغ عليه ألقاب الثناء، وخلع عليه ألفاظ التبجيل فقال: «الشيخ، الإمام، المفتي الأوحد، الواعظ الكبير.. تفقه، وبرع في الوعظ، ودرَّس، وأفتى، وصنَّف، وكان له قَبول زائد، حدَّث ووعظ بمصر وبدمشق، له خُطب ومقامات، وكان حلو الإيراد، صارماً، مهيباً، شهماً، كبير القدر»(١).

وكان الموفق ابن قدامة من شدة إعجابه بهذا العالم يتفرس فيه أن يكون إماماً ذا شأن في المذهب الحنبلي؛ وذلك لما يملكه من أهلية تميز بها عن غيره.

ومع هذه المواهب الحسنة، والصفات المستحسنة لهذا العالم ـ غفر الله له ـ إلا إنه لم يكن كما توقع ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي ذلك يقول ابن قدامة: «كنت أتخيل في ـ ثم ذكر اسمه ـ أن يكون إماماً بارعاً، وأفرح به للمذهب؛ لما فضَّله الله به من شرف بيته، وإعراق نسبه في الإمامة، وما آتاه الله تعالى من بسط اللسان، وجراءة الجنان، وحِدَّة الخاطر، وسرعة

(١) إعلام الموقعين (٢٣/٦).

الجواب، وكثرة الصواب، وظننت أنه يكون في الفتوى مبرِّزاً على أبيه وغيره، إلى أن رأيت له فتاوى غيره فيها أسدُّ جواباً، وأكثر صواباً، وظننت أنه ابتلي بذلك لمحبته تخطئة الناس، واتباعه عيوبهم، ولا يبعد أن يعاقب الله العبد بجنس ذنبه ـ إلى أن قال: وهو قد شغل كثيراً من زمانه بالرد على الناس في تصانيفهم، وكشف ما استتر من خطاياهم، ومحبة بيان سقطاتهم، ولا يبلغ العبد حقيقة الإِيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه، أفتراه يحب لنفسه بعد موته من ينتصب لكشف سقطاته، وعيب تصانيفه، وإظهار أخطائه، وكما لا يحب ذلك لنفسه ينبغي أن لا يحبه لغيره، سيما للأئمة المتقدمين، والعلماء المبرِّزين، وقد أرانا الله تعالى آية في ذهابه عن الصواب في أشياء تظهر لمن هو دونه»[(١)].

فنبَّه الموفق ـ عليه رحمة الله ـ على أن من أسباب صد هذا العالم عن الصواب بأنه قد شَغَل كثيراً من زمانه بالرد على الناس في تصانيفهم، وكشف ما استتر من خطاياهم، ومحبة بيان سقطاتهم، واتباع عيوبهم!

ومن آثار الوقيعة في الناس أن الحافظ ابن حجر ترجم لأحد أهل العلم، فقال: «كان عالماً، له يد في النحو والحديث، حسن الشكل، كيِّساً، متواضعاً، ليِّن الجانب.. وقرأت بخط ابن حجي: أنه تغير في آخر عمره تغيراً شديداً، ونسي بعض القرآن؛ فكان يقال: إن ذلك لكثرة وقيعته في

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٤٣٠).

الناس ـ عفا الله تعالى عنه بمنّه وكرمه ـ»[(١)].

فاللَّهُمَّ عافنا فيمن عافيت؛ وصدق زيد بن سنان لما قال: «إذا كان طالب العلم قبل أن يتعلم مسألة في الدين، يتعلم الوقيعة في الناس، متى يُفلح؟!»[(٢)].

فإذا رأيت الرجل قد اشتغل في الآخرين، ينقِّر أخطاءهم تنقيراً؛ ويعلنها جملة وتفصيلاً، فاعلم بأنه رجل خائب مخذول، وسلْ ربك العافية من هذه الحال.

وإذا رأيت الرجل مشتغلاً بنفسه عن الناس، وإذا سمع خطأ عن أخيه لم يشنِّع، ولم يفضح، ولم يفرح؛ بل توجع لأخيه واعتذر، وإن اقتضى الأمر نصحه وستر، فهو الشريف الماجد النبيل.

وما أرق وأجمل ما ذكره ابن القيم في ذلك من مستحسنات التوبة والإنابة قائلاً: «من دلائل رقة قلب المؤمن وإنابته أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر؛ حتى كأنه هو الذي عثر بها، ولا يشمت به»[(٣)]. اهـ. بتصرف.

فهذا خُلُق عال، يدل على مروءة عظيمة، وشهامة كبيرة، وقلب زكي، وصدر نقي؛ وحقيقٌ بأن يوفق صاحبه ويسدد؛ فالجزاء من جنس العمل.

(١) إنباء الغمر (١/ ٤١٠)، والدرر الكامنة (٦/ ٢٤).
(٢) ترتيب المدارك (٤/ ١٠٤).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٣٥).